ملح الأرض

لم أكتب مدوّنتي منذ فترة. فترة بدت لي للوهلة الأولى طويلة. قد يعود السّبب إلى الملل أو إلى قلة المواضيع التي لم نتطرق إليها.

لقد فكّرت طويلًا في موضوع مدوّنتي، وترددت أكثر، فهناك مواضيع لا أكتب فيها لحساسيّتها عند الكثير من النّاس. من هذه المواضيع هو موضوع الدّين. موضوع شائك بحدّ ذاته بين أفراد الدّين الواحد، فما بالك بما يخصّ الأديان الأُخرى.

نعم صحيح... شيرين أبو عاقلة. لقد كُتب الكثير عن الموضوع كما سيُكتب الكثير في المستقبل، فما زال التحقيق قائمًا ولن ينتهي قريبًا.

عرفت شيرين منذ ما يقارب الثلاثين عامًا عندما كنت مدرّسًا للّغة العبريّة في الجامعة العبريّة في القدس، وكانت شيرين إحدى طالباتي. لا لا أنا لا أعرفها جيّدًا، فقد كانت فتاة في بداية العشرينات ولقاءاتنا كانت تنحصر على درسين في الأسبوع. لكن يمكنني أن أقول إنها حسب ما أذكر، كانت فتاة هادئة، تتحدث فقط إذا سألتها. لكن من بين هذا لم أعرف أنّ شيرين كانت مسيحيّة. لقد عرفت هذا عندما سمعت أنها قُتلت وأنّ الصّلاة ستكون في الكنيسة.

مسيحيّة؟! يا للهول؟! قبل أن أخوض في هذا الموضوع أودّ أن أذكر حادثتين سمعت إحداهما من صديق والأُخرى من خلال وسائل الإعلام. الأولى حدّثنا بها صديقٌ لنا كان قد سكن في إحدى الدول العربية. ذكر هذا الصّديق أنّ أحد اصدقائه المقربين قد توفّي وتفاجأ هذا الصّديق أنّ المُتوفّى كان مسيحيًّا وانه عرف ذلك عندما اعلنوا عن مكان الصلاة.(هذه الحادثة كانت في سنوات السبعينات من القرن الماضي)". أما الحادثة الثّانية

فقد سمعتها من أحد رجالات الدّولة في إحدى الدّول، قد تكون العراق أو سوريا، حيث ذُكر أنّ أحد الوزراء الجدد كان قد تقدّم لأداء يمين الولاء في وزارة جديدة، فمدّ له سكرتير الدّولة القرآن الكريم ليقسم عليه، فرفض الوزير ذلك أمام استغراب الحاضرين. فعندما سألوه عن الموضوع قال إنه مسيحي ويجب أن أحلف على الإنجيل. قد تكون هذه القصة غير واقعيّة لأنه ليس من المعقول ألّا تعرف مخابرات هذه الدّولة أنّ أحد الوزراء مسيحي، لكنّها تحمل في طيّاتها رمزيّة حول ما كانت عليه أوضاع الشّعوب العربيّة في الماضي وخاصّة أيام القوميّة العربيّة والنّاصريّة.

لنعد إلى موضوعنا، كلّنا نعرف قناة الجزيرة والجدل الذي يدور حولها منذ إقامتها وحتى يومنا هذا. لكنني أعرف أنّ شيرين أبو عاقلة لم تكُن صحفيّة بالمعنى التقليدي للكلمة. فشيرين كانت مختصّة في الشّأن الفلسطيني. ونحن نعرف أنّ الاختصاص بالشؤون الفلسطينيّة يحتّم عليك كصحفي أن تأخذ جانبًا، فأنت لا تستطيع أن تبقى محايدًا. شيرين لم تكُن صحفيّة محايدة، وقد يكون هذا الأمر أحد أسباب اغتيالها. كانت شيرين صحفيّة حاملةً لهموم شعبها بصورة أُحاديّة الجانب، فهي ابنة هذا البلد ولا يمكنها أن تكون حياديّة بأي شكل من الأشكال. لكن ما يمكنني قوله أنّها كانت مهنيّة من الدرجة الأولى، الأمر الذي أنسى عند البعض كونها مسيحيّة.

لا تفهموني بصورة خاطئة فأنا أحترم كل شخص بغض النظر عن هويته الدينيّة. لكنني بصراحة لم أستغرب من الحملة الهوجاء التي شنّتها فئة قليلة من النّاس، فئة رغم قلّتها إلّا أنّها وجدت أرضًا خصبة لطرحها. هل نحن عنصريون؟! نعم نحن كذلك.

فهذا مسلم وهذا مسيحي وذلك دُرزي وبدوي وتلك فلّاحة ومدنيّة وخليليّة وغيرها الكثير من الصّفات الإقليميّة والعرقيّة والجغرافيّة... الخ. وأهم ما في الأمر هو أن اننا نبذل كل جهد لنجد الفوارق بيننا.

لقد سكنت خلال دراستي الجامعيّة مع طلّاب مسيحيين، وعملت مع معلّمين ورجال تربية مسيحيين. اعترف أنني قد أحببتهم واحترمتهم وفي كثير من الأحيان فضّلتهم على أبناء ديني لأنهم كانوا اهلاً لذلك واستحقوا كل تقدير ومحبة.

سينتقدني البعض بقوله " أنّ المسيحيين عنصريون". قد يكون الأمر كذلك، لكن علينا ألّا ننسى أنّ هذه صفة كل أقليّة عرقيّة أو دينيّة في كل مكان، فالمسيحيّون في بلادنا أقلّيّة. أقلّيّة صغيرة، تحاول أن تُحافظ على خصوصيّتها وعلى وجودها في بلادٍ تكثُر فيها الدّيانات والأصول والطوائف. لذلك أنا أحترم جهودهم في المحافظة على خصوصيّتهم وتقوية العلاقات الاجتماعيّة والاقتصادية فيما بينهم. سيثور البعض منكم على كلامي هذا وسيقولون أنني أبالغ، وأنني منحاز للمسيحيين لأسباب خفيّة، لكنني أرفض هذا التّوجه رفضًا تامًا.

دعوني أسألكم: من منّا لا يُريد جارًا مسيحيًّا له؟! من منّا لا يُريد مستأجرًا مسيحيًّا لبيته أو شقته؟! مستأجرًا يدفع أُجرة البيت ويُحافظ على علاقته معنا بأدب واحترام. من منّا لا يُريد أن يُرسل أولاده إلى مدارس مسيحيّة؟! من منّا لا يتباهى أنّ أولاده يدرسون بمدرسة الفرير أو الورديّة أو المطران؟! لنكُن صريحين مع أنفسنا، سبعون بالمئة من طلّاب المدارس المسيحيّة هم من المسلمين. كم واحد منّا يبحث له عن "واسطة" ليضُم أولاده في صفوف هذه المدارس ذات المستوى العالي والتّربية الرّاقية.هل تأتمنونهم على تربية وتعليم اولادكم ،اغلى ما عندكم ، وتستكثرون عليهم رحمة الله ؟!

اتركوا المدارس جانبًا، ابتعدوا عن البيوت والسكن، واسألوا أنفسكم السؤال التّالي: من هم أكثر النّاس حماسًا لإشعال شجرة عيد الميلاد؟ من هم غالبيّة المحتفلين برأس السّنة الميلاديّة؟ وغيرها من العادات من شجرة عيد الميلاد وحتى بابا نويل.

دعوني أقولها بصوتٍ عالٍ إننا بحاجة إلى وجود إخواننا المسيحيين بين ظهرانينا فهم ملح هذه الارض، نحن بحاجة إليهم أكثر من حاجتهم إلينا، فنحن الأغلبيّة وهم الأقليّة. بتعاملنا معهم تظهر قوّة مجتمعنا وصلابته أمام الهجمات الداخليّة والخارجيّة. بهم نعزّز وحدتنا ونحترم اختلافاتنا.

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة